الملامح التداولية في الدراسات الأسلوبية
- مقاربة لأوجه التداخل -

أ. امحمد شليم
قسم اللغة العربية-جامعة زيان عاشور- الجلفة (الجزائر)
chellimmahmod@yahoo.com

الملخص:

تعد الأسلوبية من المعارف الحديثة التي فرضت حضورها في الدراسات اللغوية المعاصرة إذ قلما نجد حقلا معرفيا لا يتصل بمباحثها الإجرائية كيفما كانت درجة ذلك الاتصال ؛فبعد أن كانت وليدة الثورة المنهجية التي أحدثتها اللسانيات في صيغتها السوسيرية ارتبطت بالفلسفة البنيوية والإرث النظري الذي خلفه الشكلانيون الروس ،واهتمامهم بقضية الأدبية ،فضلا عن تعلقها بالآليات البلاغية القديمة ودراسة فن الإقناع من خلال الأساليب الإنشائية المساهمة في تشكيل الخطاب اللغوي ،لينتهي المسار إلى محاولة مولينيه إيجاد علاقة بين الأسلوبية واللسانيات التداولية ،منطلقا من دراسة الأفعال الكلامية كما ظهرت عند أوستن وسورل ،مع ربطها بالنتاج الأدبي للمتكلم ،مفسرا القيمة التداولية للعمل الأدبي بكونها تأثيرية تقوم بعملية إبدال وتحويل الخطاب الاعتيادي إلى عمل فني ،وهذا ما يعزز إمكانية تجاوز التفريق التقليدي بين الحقول المعرفية في الدراسات اللغوية ،إذ نقف في الكثير من الأحيان على مؤلفات تسوي بين علوم عدت سابقا مختلفة

الكلمات المفتاحية :الأسلوبية، اللسانيات، التداولية.

Résumé :

La stylistique est devenue une des vérités qui s'imposent dans les études linguistique contemporaines, vu que c'est rare ou on trouve un champ épistémologique qui s'épargne de ses traités procéduraux. et après qu'elle était le fruit de la révolution méthodique de la linguistique saussurienne , elle s'est attachée à la philosophie structuraliste et à l'héritage théorique tracé par les formalistes russes qui se sont intéressés à la littérarité .Aussi elle s'est dotée des mécanismes de la rhétorique classique et à l'étude de l'art de persuader et aux styles impératifs qui contribuent à la construction du discours linguistique . En outre, Molinié a essayé de trouver une liaison entre la stylistique et la linguistique pragmatique qui étudie – selon Molonié – les actes langagières comme se sont présentés chez Austin et Searle , tout en les reliant avec la production littéraire du locuteur , présentant la valeur pragmatique de l'œuvre littéraire comme affectif , et qu'elle œuvre à changer et transformer un discours ordinaire et spontané à un œuvre artistique , et cela serait la cause de la disparition de la distinction traditionnelle entre les différentes études linguistique contemporaines.

Mots-clés: Stylistique, linguistique, la pragmatique

مقدمة:

إن قضية الفصل بين العلوم في الدراسات الإنسانية المعاصرة أصبح بالغ الصعوبة بعد أن ظهر تقارب بين المعارف المختلفة وتداخل في موضوعاتها ؛حتى أصبح التفريق التقليدي بين الاختصاصات - لاسيما اللسانية منها - لاغيا ؛إذ نقف في الكثير من الأحيان على دراسات تسوي بين علمين عدا سابقا منفصلين ومختلفين ؛ولعل علم الأسلوب أو الأسلوبية أحد المعارف الحديثة التي يجد الباحث صعوبة في تصنيفها في مجال محدد ؛مما يستدعي البحث عن إجابات لتساؤلات تنطلق من علاقة الأسلوبية باللسانيات ؟ ثم إلى أي حد تذهب اللسانيات وهي تطمح أن تكون علما في تناول ما يخص الأسلوب ؟وما السمات التداولية في المقاربة الأسلوبية للخطاب اللغوي ؟

إذا أردنا الخوض في قضايا الدرس الأسلوبي الحديث ،أدركنا أن مصطلح الأسلوب (style) يمثل النقطة المركزية في هذا الحقل المعرفي الجديد ،أو إن صح التعبير يعتبر قطب الرحى الذي تدور حوله أغلب القضايا الأسلوبية

،بالإضافة إلى أن هذا المفهوم يعد سابقاً في الوجود من حيث الظهور في الفكر الغربي عن مقابله الآخر: الأسلوبية (stylistique) ،بحوالي خمسة قرون من الزمن[1].

والمتتبع للمسار التطوري لمصطلح الأسلوب في الثقافة الغربية يلاحظ كيفية تعرضه للعديد من التعميمات الدلالية؛ حيث انتقل من مجرد الدلالة على الأداة التي يكتب بها على ألواح شمعية إلى الوظيفة التي تؤديها هذه الأداة ،لينتقل إلى الدلالة على طريقة التعبير التي تميز كاتبا معينا ؛إلى درجة أنه " إذا عدنا إلى القواميس فسنرى أنها تقترح علينا مالا يقل عن عشرين تعريفا(...)يذهب أهمها من طريقة التعبير عن الفكر إلى طريقة العيش ،مرورا بالطريقة الخاصة لكاتب من الكتاب، أو لفنان، أو لفن، أو لتقانة، أو لجنس، أو لعصر... إلى آخره "[2].

وهذا ما أدى إلى أن يقدم كثير من الباحثين في مقدمة كتبهم لعلم الأسلوب بعرض مجموعة من التعريفات ،تصل في بعض الأحيان إلى نيف وثلاثين تعريفا[3].فكل باحث ينطلق من وجهة نظر مخالفة لغيره مما يعكس درجة اختلاف وجهات النظر في تحديد مفهوم الأسلوب.

هذا الاتساع والعمومية انعكس أثرُه على "الأسلوبية" حيث رفض البعض وصفها بالعلم وقرر أنها منهج لغوي يطمح إلى تحليل ودراسة الأساليب ،دراسة علمية موضوعية ،ولكن هذا لا يمنع من القول :" أن الأسلوبية في هويتها النوعية ماانفكت تتلابس بحقول تتاخمها وليست منها حتى إن بعض النقاد والباحثين تتداخل لديهم خصوصيات معرفية يحملونها على علم الأسلوب وليس له إليها من سبيل ولا له عليها طائل "[4].

الأسلوبية والإطار اللساني : بالرغم مما قيل عن مفهوم الأسلوب ،ومشكل تعدد المفاهيم يمكن الاتفاق على أن أغلب من ألفّ في ميدان الدراسات الأسلوبية يرى أن ظهور هذا العلم كان نتيجة التطورات الحاصلة في مجال الدراسة اللغوية مع مطلع القرن العشرين على يد عالم اللغة السويسري :فرديناند دوسوسير(Ferdinand de Saussure) ؛حيث أحدث هذا الأخير ثورة منهجية في مبادئ الدراسة اللغوية عن طريق تغيير المفاهيم التي كانت سائدة في تلك الحقبة من التاريخ ،حيث قام "بمراجعة معايير السلامة المنهجية التي كانت تحصر البحث اللغوي داخل سياج التطور التاريخي ،ثم أرسى أساسيات المعمار المعرفي الجديد "[5]،مناديا بضرورة دراسة اللغة دراسة آنية Synchronique في مرحلة من مراحلها الثابتة ؛مما أكسب الدراسة اللغوية طابعا علميا يتسم بالوصفية ويقصي من دائرة اهتمامه الأحكام القطعية الناتجة عن الأسس المعيارية ولتحقيق هذا الطابع الوصفي في دراسة اللغة اقترح دوسوسير عددا من التقسيمات المبنية على التفرقة بين ثنائيات تقابلية من قبيل:(التزامن والتعاقب ،الداخل والخارج، الدال والمدلول، اللغة والكلام...الخ).

"ولعلّ أهم مبدأ أصولي يستند إليه تحديد حقل الأسلوبية يرتكز أساسا على ثنائية تكاملية ... تتمثل في تفكيك مفهوم الظاهرة اللسانية إلى واقعين ،أو لنقل ظاهرتين وجوديتين : ظاهرة اللغة وظاهرة العبارة (أو الكلام) "[6].

وتفريق دوسوسير بين هاتين الظاهرتين الوجوديتين (اللغة والكلام) ينطلق من حقيقة أن :" اللغة مجموعة من العلامات المختزنة في حقل الجماعة المعينة ؛هذه العلامات والقواعد المختزنة في الذهن لا نطق لها ؛لأن محورها جمعي وهي تشبه القاموس الذي توجد فيه الكلمات صامتة غير منطوقة صالحة للنطق والاستعمال.."[7].

وبهذا تكون اللغة واقعة اجتماعية ،وليست فردية يمكن دراستها دراسة علمية حقيقية لإمكانية إخضاع ظواهرها للتصنيفات العلمية ،والوصول إلى العلاقات الداخلية لبنيتها أو شفرتها.

أما ظاهرة الكلام فهي الإنجاز الفردي للغة ،أو تحويل تلك العلامات اللغوية المختزنة في حقل الجماعة من حالة الكمون إلى حالة التنفيذ الفعلي ؛"هذا الكلام مجاله أرحب ،وأوسع من مجال اللغة فحيث تختزن اللغة في الذهن بعلاقة تجريد يبدو الكلام أمراً مركبا ؛لأنه بحاجة إلى جملة أطرافٍ تثري أبعاده ،فهو نوع من الدراما الشاملة التي تحتاج على الأقل إلى متكلمٍ و متلق و مشهد خاص ،وزمان ،ومكان ودلالات تكون مقصودة أو مرتجلة ؛بمعنى آخر هو مسرح وإيقاع حياة "[8].

ولهذا يرى دوسوسير أن الكلام ظاهرة متشعبة متنافرة المقومات ،وبالتالي لا يمكن إخضاعه للدراسة العلمية المنهجية ؛لذلك تبقى اللغة هي الموضوع الوحيد للسانيات ؛لأنها العنصر القابل للملاحظة العلمية الدقيقة عن طريق رصد العلاقات الكامنة بين العناصر المشكلة لها بوصفها نظاما من الأدلة المبنية على التقابل والاختلاف في حين يصعب وضع الكلام في دائرة الدراسة بسبب الاختلاف وعدم الثبات .

ومن الواضح أن هذا التفريق هو تفريق بين النظام اللغوي المجرد من جهة ،والأداء الفردي الذي يظهر على ألسنة أصحاب هذا النظام من جهة أخرى ؛وفي إطار هذا التفريق يصبح الكلام اختيارا من بدائل ممكنة في النظام ؛ونحن ندرك الأهمية التي سيحظى بها مصطلح (الاختيار) في مجال الدراسات الأسلوبية ؛حتى أن الكثير من الدارسين يتخذه إجراء تطبيقيا لرصد الملامح المميزة الخطاب اللغوي ،ولاسيما إن كان هذا الخطاب يهدف إلى غايات جمالية .

لقد "كان هذا التمييز بين اللغة كظاهرة مجردة توجد ضمنا في كل خطاب بشري ،و لا توجد أبداً هيكلاً مادياً ملموساً والكلام باعتباره الظاهرة المجسدة للغة مساعدا على تحديد مجال الأسلوبية إذ إنها لا يمكن أن تتصل إلا بالكلام ،وهو الحيز المادي الملموس الذي يأخذ أشكالا مختلفة "[9].

من هذا المنطلق أصبح الربط بين الدرس الأسلوبي الحديث والدرس اللساني من الأمور المسلم بها بعد الذي توصلت إليه البحوث اللسانية من خطوط واضحة وأسس ثابتة نتيجة اتخاذ المنهجية العلمية قاعدة أساسية لدراسة اللغة دراسة وصفية ،تُبْعِدُ من اهتمامها كل الاعتبارات الخارجية التي لا تخضع للملاحظة الدقيقة ،أي دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها.

هذا الربط بين الدرس الأسلوبي ،والدرس اللساني أدى إلى ظهور إشكالية استقلال الأسلوبية عن اللسانيات ؛وهو ما دفع عبد السلام المسدي إلى التساؤل عن جدوى علمية الدرس الأسلوبي ،وإمكانية اعتباره من المعارف المختصة بذاتها واستقلاليتها ،أو تصنيفها على أنها مواصفة لسانية ؛راصداً بذلك عدداً من التعريفات الغربية التي حصرت مجال الدراسة الأسلوبية في البعد اللساني ؛حيث عرف ميشال أريفي (M. Arrivé) الأسلوبية بأنها وصفٌ للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات ،أما دولاس(Dolas) فذهب إلى أكثر من ذلك عندما وصف الأسلوبية بأنها منهج لساني[10] .

ولعلّ هذا راجعٌ إلى تطبيق الدرس الأسلوبي للمستويات اللسانية (الصوتية ،الصرفية ،التركيبية الدلالية) في تحليل النصوص

لينتهي في الأخير إلى أن :" الأسلوبية تتحدد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب طالما أن جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغاته الإبلاغية ،ويتدقق هذا التعريف ذو البعد اللساني شيئا فشيئا حتى يتخصص بالبحث عن نوعية العلاقة الرابطة بين حدث التعبير ومدلول محتوى الصياغة"[11].

رغم تأثير الدرس اللساني ومنهجيته في الدراسات الأسلوبية واستخدام محلل الأسلوب للأدوات والإجراءات التي أفرزتها اللسانيات وتطبيقاتها ؛إلا أنه يمكن القول بأن اللسانيات هي العلم الذي يدرس ما يقال ،في حين أن الأسلوبية هي التي تدرس كيفية ما يقال مستخدمة الوصف والتحليل في آنٍ واحد[12].

وعليه تصبح "الأسلوبية ،علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي ،أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية ،فتميزه عن غيره (...) بالمنهجية العلمية اللغوية ،وتعتبر (الأسلوب) ظاهرة هي في الأساس لغوية تدرسها في نصوصها وسياقاتها"[13].

فأهم خاصية اتخذتها الدراسة الأسلوبية في منهجيتها هي بحثها الدائم عما يتميز به الخطاب عن غيره من أصناف الخطابات الأخرى ؛وذلك بتحليل عناصره اللغوية تحليلا علميا من أجل رصد الملامح التي تعكس فرادته وتميزه حتى وإن كان رصد هذه الملامح يتم وفق مناهج مختلفة ،وإجراءات متعددة نجدها في اختلاف الاتجاهات الأسلوبية في الأسس التي تنطلق منها للبحث عن ظاهرة الأسلوب ،وخاصة ما يعرف بالاتجاه التعبيري أو الوصفي ،الذي جسدته المدرسة الفرنسية منطلقة من مبدأ أن حقيقة الأسلوب هي "طريقة التعبير عن الفكر من خلال اللغة "[14].

هذه المدرسة أرسى قواعدها شارل بالي (Charles Bally) ،الذي لم يكن بعيدا عن الثورة المنهجية التي أحدثتها التطورات الحاصلة في حقل الدراسات اللغوية ؛مما انعكس على تفكيره ليتخذ من المبادئ اللسانية قاعدة لتأسيس أسلوبيته التعبيرية

الأسلوبية والتداولية :

إننا ندرك الآن أن الأسلوبية تعلقت باللسانيات في صيغتها السوسيرية - نسبة إلى: (De Saussure)- وخاصة في مباحثها التطبيقية وتوظيف المستويات اللغوية المعروفة في اللسانيات :(phonétique, syntaxique, significatif) كمدخل لتحليل النصوص والكشف عن خصائصها المميزة ؛وذلك راجع إلى تأثر شارل بالي (Charles Bally) بأعمال أستاذه فردناند دوسوسير،ويظهر ذلك جليا في منهجه الذي أطلق عليه الدارسون مصطلح الأسلوبية التعبيرية ،أو الأسلوبية الوصفية (la stylistique expressive)

والأسلوبية في نظره تسعى إلى الكشف عن القيم الكامنة في تعبيرية اللغة الجماعية البسيطة والتي تتميز بالتأثير عاطفيا على المستمع والمتكلم ؛هذه التأثيرات العاطفية ليست مرتبطة بالقوالب التي حددتها البلاغة القديمة من مجاز ،وصور جمالية فقط؛ بل ترتبط أيضا بالتعبيرات البسيطة وهذا ما يعكس الطابع العلمي الذي اتسمت به دراسته في منهجية البحث ؛إذ يبني بالي تصوره على أساس التفسير الذي بَنى عليه دوسوسير منهجه الوصفي وهو ؛أنه لا يمكن دراسة ،واكتشاف نظامية اللغة إلا من خلال الدراسة الآنية ،وفي حالة معينة من حالاتها؛أي إقصاء الدراسة التاريخية التي تهتم بتطور اللغة في فترات متعاقبة .

وللوصول إلى غايته ألّف بالي كتابين هامين هما : "stylistique Française1902 "في الأسلوبية الفرنسية ،و"Traité1905 de Stylistique française"وبحث في الأسلوبية الفرنسية ،ثم أصدر كتابين آخرين هما: "Le langage et la vie1913"اللغة والحياة ،و"Linguistique Générale et Linguistique Française1932"اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية ،وفي هذه المؤلفات يقوم بالي بالبحث في العلاقة التفاعلية بين اللغة بوصفها نظاما من الرموز ،والقيم التعبيرية والجوانب التأثيرية فيها ؛وعلى هذا الأساس انطلق في دراسته للأسلوب من التفريق بين اللغة (Le langage) ،والكلام(la parole)؛حتى وإن ذهب في

تقسيمه للواقع اللغوي مذهبا آخر،فهو يرى أن للخطاب نوعين :"ما هو حامل لذاته غير مشحون البتة ،وما هو حامل للعواطف والخلجات وكل الانفعالات ،فاللغة في الواقع تكشف في كل مظاهرها وجها فكريا ووجها عاطفيا ويتفاوت الوجهان كثافةً حسب ما للمتكلم من استعداد فطري ،وحسب وسطه الاجتماعي ،والحالة التي يكون فيها ".[15]

من هذا المنطلق انبثق مفهوم التعبيرية (l'expressivité) ،وهو من المفاهيم التي ركزت عليها الأسلوبية وخاصة الاتجاه التعبيري في دراسة الأسلوب ؛وقد ذهب صلاح فضل إلى أن منطلق دراسة الأبنية الشعرية باعتبارها لغة ثانية ،يبدأ من منظور التعبير الذي ينحو إلى الارتباط بفكرة التوصيل المتعلقة بالقراءة ،وهي في الوقت ذاته مرتبطة بالتوصيل اللغوي الطبيعي ومجاوزة له بقيمها الجمالية ؛ولهذا يعتبر مصطلح التعبيرية أكثر تقنية وأشد ارتباطا بنظرية الشعرية واصفا التعبيرية بكونها المظاهر الفيزيقية التي نستقبلها بواسطة الحواس ؛حيث أننا نرى الكلمة المكتوبة تماما مثلما نرى العلامات المميزة على أنواع الزهور ،ونحن نسمع الكلمات مثلما نسمع صوت الرعد ؛لكن الكلمات تعكس تلك المظاهر الأخرى ،ولها طبيعة مزدوجة فهي تحيلنا إلى ما هو كائن وراءها ،وهي تجسد لنا المعاني التي يمكن فهمها ،أو يتعذر إدراكها[16].

ولعل تحديد شارل بالي لمفهوم الأسلوب بكونه :"...تفجر الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة بخروجها من عالمها الافتراضي إلى حيز الموجود اللغوي"[17]؛أي أن الأسلوب هو الاستعمال ذاته .

ينقلنا إلى قضية فرضت نفسها في الدراسات اللغوية المعاصرة ،وهي قضية الربط بين الأسلوب و فكرة الإيصال يقول ريمون الطحان :

" اللغة بناء مفروض على الأديب من الخارج ،والأسلوب مجموعة من الإمكانيات تحققها اللغة ويستغل اكبر قدر ممكن منها الكاتب الناجح ،أو صانع الجمال الماهر الذي لا يهمه تأدية المعنى وحسب بل يبغي إيصال المعنى بأوضح السبل وأحسنها وأجملها وإذا لم يتحقق هذا الأمر فشل الكاتب وانعدم معه الأسلوب"[18].

وإذا كان موضوع الأسلوبية هو الجانب العاطفي للغة ،وما تحمله من خواص تأثيرية ترتبط بالمتكلم والظروف المحيطة به ؛فيمكن الاستفادة من نظرة شارل بالي للغة وما تعكسه في "الجانب العملي في الحياة ،إذ تدفع الكلمة كي تكون في خدمة العمل وتصبح أداة للممارسة فيحاول المتكلم أن يفرض آراءه وأفكاره على الآخرين مقنعا ،أو راجيا ،أو أمرا ،أو ناهيا ،أو مجيبا على من يحاول معه مثل ذلك وهذه هي الوظيفة الاجتماعية للغة في الحياة"[19].

وقد نستفيد أيضا من تحديد الطاقة الضاغطة على حساسية المتقبل _(Riffaterre)_ عندما قرر تعريف الأسلوب بكونه: " هو البروز الذي تفرضه بعض لحظات تعاقب الجمل على انتباه القارئ فاللغة تعبر والأسلوب يبرز"[20].

ويمكننا الخروج من هذا التصور بنتيجة مفادها أن للقارئ دورا بارزا في تحديد خصائص الأسلوب، وذلك من خلال تتبعه للبنى التركيبية الموزعة في نسيج النص، وكيفية تشكيلها وصياغتها؛ وما على محلل الأسلوب سوى رصد استجاباته المختلفة تجاه النص وهو ما عرف بالمفهوم التأثري للأسلوب .

تلك الطاقة الضاغطة التي تنحل إلى جملة من العناصر المركبة أبرزها فكرة التأثير وهي فكرة لا تخلو من ضبابية لأنها تشع على حقول دلالية متداخلة الحدود فهي تستوعب مفهوم الإقناع باعتباره شحنة منطقية يحاول بها المخاطب حمل

مخاطبه على التسليم الوضعي بمدلول رسالته ثم إنها تشمل معنى الإمتاع باعتباره سعيا حثيثا نحو جعل الكلام قناة تعبره المواصفات العاطفية[21].

ويعلل بعض اللغويين هذا الواقع برغبة الباث مهما كان انتماؤه الاجتماعي وأيا كان سلم وعيه وإدراكه وسواء خاطب مشافهة أو كتابة في حمل المخاطب لا على فهم محتوى الرسالة فحسب بل على تقمص ثوب التجربة المنقولة عبر الخطاب كذلك ،وهذا يقربنا من الدراسات التداولية المعاصرة وخاصة في مبحث (الأعمال اللغوية) أو ما يعرف بنظرية أفعال الكلام عند أوستن ؛إذ تلتقي نظرية هذا الأخير من حيث المنطلقات مع تقسيم شارل بالي للواقع اللغوي إلى ثنائية أصولية تنبني على التفريق بين مستويين من الخطاب خطاب حامل لذاته غير مشحون البتة ،وخطاب حامل للعواطف والخلجات والانفعالات .[22]

فالمبدع نتيجة للظروف المحيطة به ،يقوم بنقل أحاسيسه وأفكاره لآخرين مستثمرا الإمكانيات التي تتيحها له اللغة عبر مستوياتها المختلفة لتشكيل رسالة تحمل طابع الفرادة الذي يميزها عن غيرها بأسلوبها الخاص ؛فالتعابير اللغوية عادة ما تحمل بصمات صاحبها ،وترتبط به ارتباطا وثيقا وخاصة إذا أدركنا أن القيم الشعورية الكامنة في أعماق ذات المتكلم تسبق دائما وأبدا القيم التعبيرية في الخطاب اللغوي . ويمكن التمثيل للتصور الذي يربط بين المنهجين الأسلوبي والتداولي بالشكل التالي :

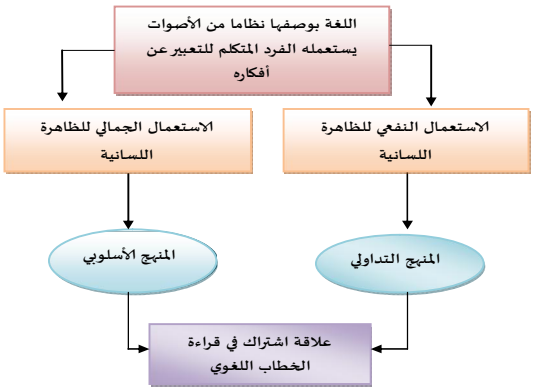

وفي هذا السياق لابد من بيان علاقة التعبير بالاستعمال النفعي للغة ،إذ يتبين أن الكلام فعالية اجتماعية ذات بعد تداولي وان دخل ضمنه ما هو جمالي أو كان معبرا عن الأحاسيس والمشاعر فالعملية التواصلية تتطلب وجود معبر ،وطرف مقابل يستقبل ذلك التعبير (مرسل ومستقبل) وبذلك يحقق الكلام عملية التواصل باستهداف المرسل (المتكلم) مستقبلا مباشراً لإنجاح عملية التواصل .

في ضوء ما تقدم يمكن تقسيم الوقائع اللغوية إلى ضربين: وقائع لغوية اعتيادية وأخرى فنية جمالية ؛تستهدف الأولى تحقيق التواصل بين مرسل ما ومتلقي من دون الاهتمام بالوظائف الأخرى ,بينما تتعدى الوقائع الجمالية وظائف اللغة المتمثلة بالتفكير والتواصل والتمثيل ,إلى الخلق والتأثير ،ومصطلح التعبيرية (l'expressivité) الذي شاع في الدراسات الأسلوبية يستخدم للإشارة إلى الضرب الثاني من الوقائع اللغوية .

لقد كانت أسلوبية التعبير- كأي نظرية أصيلة – مشروعا علميا مبكرا في مجال دراسة الأساليب ؛وهي بصفتها هذه لا تخلو من بعض المآخذ التي أثارت أشكالا من صور النقد الموجه إليها وخاصة من بعض تلاميذ بالي ؛وهو ما أدى فيما بعد إلى ظهور اتجاهات أسلوبية جديدة ،اقترحت بعض التعديلات على منهجية الدرس الأسلوبي التي جاء بها ؛ولعل أهم المآخذ التي أُخذت عليها أسلوبية بالي هي تركيزه على المحتوى العاطفي في الأسلوب والذي صرفه عن الاهتمام بالقيمة الجمالية في الكثير من الأحيان فأسلوبيته تعبيرية بحتة ،ولا تعني إلا الإيصال المألوف والعفوي وتستبعد كل اهتمام جمالي ،أو أدبي والدرس الأسلوبي توسع فيما بعد ليشمل دراسة القيم الانطباعية والوقائع اللغوية من خلال الأعمال الإبداعية ،هذا بالإضافة إلى أن اهتمامه بالجانب العفوي للغة (اللغة المنطوقة) ،ابتعد به عن اللغة المجسدة في أشكال فنية إبداعية (اللغة الأدبية) ؛وهي في الواقع مجال الدراسات الأسلوبية ،وهذا بحجة استبعاد الأعمال الفنية المبنية على القصد المنافي للعفوية ولهذا الاستبعاد في الحقيقة تضمينات تتعلق بالأسس النظرية التي انطلق منها عند وضع مبادئه التعبيرية حيث يعود هذا الأساس إلى أستاذه دوسوسير وإقصاءه لظاهرة الكلام الفردي أو الجانب الفعلي للغة ،وبالتالي يكون بالي قد اهتم بدراسة اللغة مفردات وقواعد ولم يهتم بدراستها استعمالا خاصا أولم يهتم بما يستطيع الفرد أن يفعله بها في ظروف معينة ،وغايات محددة.

ليأتي كروسوCressot متخذا موقفا عكسيا تماما من أستاذه فيرى أن العمل الأدبي هو مجال علم الأسلوب الممتاز ،إذ أن اختباره للعناصر الأسلوبية يتم بدقة إرادية واعية ،وينقد مبررات عزل الأدب عن علم الأسلوب ،فالعمل الأدبي إنما هو شكل من أشكال التواصل أيضا والعناصر الجمالية فيه مردها إلى رغبة المؤلف في جذب القارئ وإمتاعه .

يقول كروسو :" لا يتسنى لأحد أن يناقضنا إن نحن أكدنا أن الكاتب لا يفصح عن حسه ،ولا عن تأويله للوجود إلا إذا مدّ بمعاول ملائمة ؛وليس للأسلوبي من عمل سوى فحص تلك المعاول"[23]؛

فكروسو يرى أن الخطاب الأدبي أو الأعمال الفنية بصفة عامة تعتبر المجال الحقيقي لتطبيق مقولات الدرس الأسلوبي ؛وذلك لأن الكاتب أو المبدع يقوم خلال إبداعه باختيار عناصر تعبيرية اختيارا واعيا ومقصودا يهدف إلى التأثير في المتلقي ،وعلى دارس الأسلوب فحص هذه العناصر اللغوية التعبيرية لاستخلاص قيمها ومميزاتها ،فهي في النهاية تعكس أسلوب المبدع في استخدام اللغة ؛لأنه يعمد خلال بناء خطابه إلى توظيف عناصر جمالية مختلفة تثير حساسية المتلقي وتجذب انتباهه ،وتوظيف هذه العناصر الجمالية يختلف من مؤلف إلى آخر والبحث عن العناصر الجمالية في حد ذاته ،هو بحث عن جانب الفرادة في استخدام الطاقة التعبيرية للغة وتأثيرها على حساسية المتلقي ؛ولهذا فإن الدرس الأسلوبي الحديث يسعى إلى الكشف عن العناصر المميزة في الخطاب الإبداعي دون إهمال الجوانب النفسية المصاحبة لعملية إنتاجه(المقصدية في الدراسة التداولية) وسيلته في ذلك دراسة اللغة دراسة علمية موضوعية تكشف الملامح الأسلوبية الكامنة خلف البنى اللغوية والعلاقات القائمة بين هذه البنى لتختلف طرق الكشف عن تلك العلاقات باختلاف المناهج ،وتعدد الاتجاهات الأسلوبية (البنيوية ،الأدبية ،الإحصائية....الخ) حتى وإن كانت تعود في بعض إجراءاتها إلى المبادئ الأولى لشارل بالي .

إن محاولة رسم الحدود لعلم الأسلوب لا ينقص من قيمته أو يدعو إلى إعادة النظر في إجراءاته ،ولكن ينبغي فهم الآليات الناتجة عن تداخل هذا العلم مع حقول مقاربة له ومشاركة له للموضوع ذاته لاسيما إذا أدركنا أن الموضوع المشترك بين هذه العلوم هو الخطاب اللغوي بمختلف أنواعه ؛والذي أصبحت التداولية اليوم أهم منهج يساعد على سبر أغواره وذلك للآليات التي يمتلكها هذا العلم وخاصة إذا كانت تتخذ بعض الإجراءات الأسلوبية كمفاتيح لقراءة الخطاب و هو ما دفع بمولينيه إلى إقامة علاقة ترابط بين علم الأسلوب والتداولية منطلقا من كون التداولية تدرس نظرية أفعال الكلام

بوصفها وضعية تواصلية تتضمن سياقا معينا ،أي تعالج الوضع الذي يتشكل فيه الخطاب والمشاركين في إنتاجه ،وذلك من خلال رصد كل تفاعل حاصل بين أطراف الخطاب سواء كان فعلا أو قولا ،مقسمة تلك الأفعال إلى ثلاثة مستويات :

-الفعل القولي(العبارة) :وهو إصدار مجموعة من الأصوات حسب سنن اللغة ؛أي بناء الجمل الصحيحة صوتيا ،ونحويا ودلاليا.

-الفعل المتضمن في القول (اللاعبارة) :وهو ما يقوم على إتمام عمل آخر عبر القول غير مجرد التلفظ بمحتوى ،وتحديدا على القول صراحة كيف يجب أن تؤول العبارة في سياق التلفظ بها .

-الفعل أثر القول (أثر العبارة) :وهو ما يتمثل في إحداث تأثيرات في سلوك المخاطبين ،مثل : (دفعهم إلى القيام بأمر ما أو حملهم على اتخاذ وضعية معينة في سياق العملية التواصلية) .

وينطلق مولينييه في تحليله لأفعال الكلام من رأي برّوندونير القائل إن :" ... كل فعل كلامي هو تحقيقي لذاته ولمجرد كونه إنتاجا كلاما، في حين أن القيمة التأثيرية تختص بتحقيق موقف ملموس تحقيقا فعليا بواسطة التكلم وحده "[24]

وبما أن كل فعل كلامي هو تحقيقي لذاته ،فذلك دليل على الإمكانيات المختلفة التي تتيحها اللغة للإنسان لإنشاء رسائل لغوية يهدف من خلالها إلى التعبير عن أغراضه وإيصال أفكاره للآخرين ؛وذلك لتميزه عن غيره من الكائنات الأخرى بقدرته على توظيف فعالية (التعبير اللغوي) ؛هذه الفعالية التي تختلف من إنسان إلى آخر في طريقة الصياغة أو الأداء ؛فلكل فرد طريقته وأسلوبه الخاص به في كيفية التعبير عن أفكاره ،وهو ما يتجلى في قضية اختلاف الأساليب وتعددها ؛وهذا ما يفسر ارتباط التعبير اللغوي بالأسلوب وتداخله معه .

وإذا كان الأسلوب هو الملمح المميز لنتاج لغوي عن آخر ،أي فعالية فردية يعمل من خلالها على إدخال مجموعة من الشحنات في تفاعل مع بعضها البعض ،وبهذه الكيفية تتشكل علاقة جدلية بين الأسلوب واللغة تحفظ للغة ديمومتها وللأساليب تميزها ؛كما أن الأسلوب يسهم في إبراز التعبير بواسطة اللغة في جانبها التأثيري .

إن الفعل الكلامي الذي يتسم بكونه أدبيا هو" تأثيري "أولا يكون شيئا ،مطلقة للغة إذ تتحول إلى وظيفة شعرية، أي performativitéفالأدبية هي انجازيه ،إن الفعل الخلاق لشيء لغوي يكون هو نفسه مرجع هذا الشيء "[25] ؛وهو ما يشير إلى مفهوم التعبيرية (l'expressivit) وبما أن التداولية تهتم بدراسة الجانب الفعلي للغة أي الانجاز الفردي ،والذي حسب (أوركيوني Orecchioni) هو : "... استخلاص العمليات التي تمكن الكلام من التجذر في إطاره الذي يشكل الثلاثية الآتية : المرسل – المتلقي – الوضعية التبليغية. إن أي تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق التي تؤول فيه الجملة "[26].

إن الرأي السابق يشير إلى مدى أهمية عنصر السياق في قراءة الخطاب اللغوي مهما كان نوعه ،إذ عُد في مرحلة ما قطب الرحى الذي تدور حوله مختلف النظريات والتوجهات التي تتخذ من الخطاب موضوعا لها ؛فالسياق. هو الذي يحدد إستراتيجية الكلام من حيث كونه عبارة عن أقوال تتحول إلى أفعال ذات بعد اجتماعي ،بمجرد خروجها إلى حيز التنفيذ (الجانب الفعلي للغة) ،وفق سياق محدد ،أو عبارة عن آثار تتمظهر على سطح الخطاب ،في شكل عناصر لغوية مختلفة (ضمائر ،أسماء إشارة ، ظروف) ،أو افتراضات مسبقة وأقوال مضمرة .

وإذا استندنا إلى رأي (فيلي سندريس) القائل :أن الوسائل اللغوية جميعها هي أدوات أسلوبية ووحدات لغوية في الآن نفسه إذ إن كل عنصر لغوي يمكن أن يكون عنصرا أسلوبيا ،وصحة هذا الحكم في الأداء (أو في أي نص) مرتبطة بطبيعة الاستعمال للعنصر في إطار السياق الخاص ، وفي هذا السياق قرر سندريس أن الدراسة الأسلوبية للجانب الفعلي للغة (الكلام) هو الموضوع الرئيس الذي شغل الباحثين ؛لأن المادة المعتمدة فيها هي الجانب الأدائي للغة عمليا بما فيه من تعابير كتبها أو تحدث بها المرسل ،ولهذا يبقى السبيل مفتوحا أمام تشكل عدد كبير جدا من احتمالات الاختيار الأسلوبي[27]

إن رؤية علم الأسلوب لحقيقة الخطاب تتسم بالعلمية، كما أنها تعتبره مادة خاما قابلة للاستغلال في إطارها المنهجي الذي تستمد آلياته من علم البلاغة ،وهذا الأمر على القدر ذاته بالنسبة إلى التداولية التي استفادت من إجراءات التحليل البلاغي بل ذهبت في توظّيفها إلى حد نقلها من إطارها الجمالي التقليدي إلى الجانب التداولي الكامن في استخدامات اللغة المختلفة (نظرية أفعال الكلام) ،هذه الأخيرة التي تلتقي في الكثير من الأحيان بقضية الأساليب الإنشائية التي ترتبط بشكل مباشر بالمتكلم والمستمع وما يحيط بهما من ظروف خارجية تحدث عنها البلاغيون القدماء في باب المعاني من تحليل لأغراض الكلام وأساليبه المتنوعة دون إغفال دور السياق ،ولتصوير علاقة الأسلوبية بالتداولية في ضوء عناصر العملية التواصلية الثلاثة نمثل بالشكل الآتي :

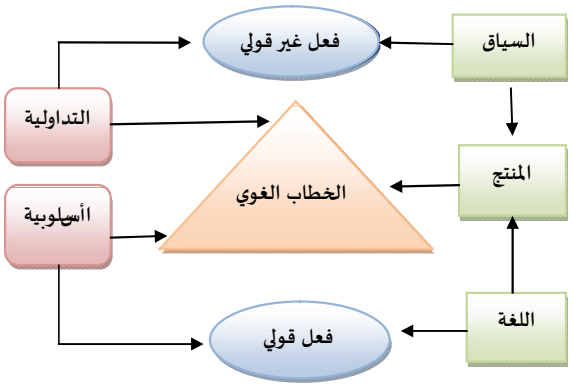

خاتمة :

في الأخير يمكن القول إن جوانب الالتقاء بين التداولية والأسلوبية كثيرة وخاصة في مجال نظرية أفعال الكلام حيث تشتركان في دراسة الاستخدام اللغوي الفعلي مما يجعلهما وسيلتان من وسائل تحليل الخطاب ،وهذا لا يمنع من وجود بعض الملامح الخاصة بكل واحدة منهما ؛ذلك أن الأسلوبية تقارب الخطاب اللغوي من خلال الوقوف عند حدود الجوانب التزينية للكلام وهو ما كان موضوعا مرتبطا بالبلاغة الإنشائية / الجمالية في حين تتجه التداولية إلى دراسة القيمة الفعلية للخطاب اللغوي بمختلف العناصر المشكلة له الداخلية والخارجية ،وهو ما دأبت البلاغة الإقناعية / الخطابية على محاولة تحليل قضاياه ورصد مباحثه المتنوعة .

هوامش البحث:

[1]- ينظر: أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (دط)،(دت) ،ص: 16.

[2]- بيير جيرو ،الأسلوبية ،ترجمة منذر عياشي ،مركز الإنماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر ،ط2 ،1994 ،ص :10.

[3]- صلاح فضل ،علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته،دار الشروق ،القاهرة ،ط1،1998،ص:95.

[4]- عبد السلام المسدي ،الأسلوبية والأسلوب ،الدار العربية للكتاب ،تونس ،ط3 ،(دت) ،ص :5 .

[5]- عبد السلام المسدي ،العربية والإعراب ،دار الكتاب الجديد المتحدة ،بيروت لبنان ،ط2،2010، ص:9 .

[6]- عبد السلام المسدي ،الأسلوبية والأسلوب ،ص :38.

[7]- احمد كشك ،اللغة والكلام (أبحاث في التداخل والتقريب) ،مكتبة النهضة المصرية ،(دط) ،1995 ،ص:10.

[8]- احمد كشك ،المرجع نفسه ،ص:10.

[9]- محمد عبد المطلب ،البلاغة والأسلوبية ،دار نوبار للطباعة ،القاهرة، ط1،1994ص :204 .

[10]- ينظر : عبد السلام المسدي ،الأسلوبية والأسلوب ، ص :48 .

[11]- عبد السلام المسدي ،الأسلوبية والأسلوب ص :34- 35.

[12]- ينظر :محمد عبد المطلب ،البلاغة والأسلوبية ،ص :186.

[13]- عدنان بن ذريل ،اللغة والأسلوب ،دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ،الأردن ،ط2،2006،ص :131.

[14]- صلاح فضل ،علم الأسلوب ،ص :134.

[15]- عبد السلام المسدي ،الأسلوبية والأسلوب ،ص :40.

[16]- ينظر :صلاح فضل ،نحو تصور كلي لأساليب الشعر المعاصر (أفاق الأسلوبية المعاصرة)، مجلة عالم الفكر، الكويت ،مج 22 ع3-4، 1994،ص : 71ومابعدها .

[17]- عبد السلام المسدي ،الأسلوبية والأسلوب ،ص :89.

[18]- عبد السلام المسدي ،المرجع نفسه ،ص :85.

[19]- صلاح فضل ،علم الأسلوب ،ص :19.

[20]- عدنان بن ذريل ،النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، (دط)، 2000، ص:44.

[21]- عبد السلام المسدي ،الأسلوبية والأسلوب ،ص :80-81.

[22]- عبد السلام المسدي ،المرجع نفسه ،ص :40.

[23]- عبد السلام المسدي ،المرجع نفسه،ص :44.

[24]- جورج مولينييه ،دراسة الأسلوب والبحث وأدوات الفن الأدبي ، ت :بسام بركة ،مجلة الفكر العربي ،معهد الانماء العربي ،بيروت لبنان طرابلس ليبيا ،شتاء 1998 ،ع94 ،ص :231.

[25]- جورج مولينييه ،المرجع نفسه ،ص 231.

[26]- *Orecchioni, C. K : Enonciation de la subjectivité dans le language.- Paris, Armand Colin, 1980.-p. 185*

[27]- ينظر :فيلي سندريس ، نحو نظرية أسلوبية لسانية ،تر :د خالد محمود جمعة ،دار الفكر ،دمشق ، ط1،2003 . ،ص :216.